مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الخامس والثلاثون/شوّال - ذو الحجة ١٤٣١هـ . اكتوبر - ديسمبر ٢٠١٠م

٣٥

- أثر العناصر المناخية في نشأة العواصف الرعدية وتطورها في المدينة المنورة
- الشخصية النسائية في روايات الروائيين المدنيين
- رزين بن معاوية: حياته وآثاره
- مدرسة العلوم الشرعية: المؤسس والمؤسسة

مدرسة العلوم الشرعية..
المؤسِس والمؤسسة

أ. محمد الدبيسي
أديب وناقد سعودي

مقدمة: تعدُّ مدرسة العلوم الشرعية وسيرة مؤسسها أحمد الفيض آبادي، من العلامات المهمة في مسيرة العلم وحركة الثقافة بالمدينة المنورة، وقلَّ أن يُشار إلى المدرسة دون أن يُذكر مؤسسها. ذكرٌ وإن كان يشير إلى الدور العلمي والثقافي التاريخي للمدرسة؛ فإنه يحيل إجمالاً إلى دور المؤسس في إقامة هذا الكيان المعرفي المهم.

وقد عُني الأستاذ عبد القدوس الأنصاري بتسجيل ذلك الدور، ورصد سيرة المؤسس، والمراحل والانعطافات التي مرَّ بها في كتابه «السيد أحمد الفيض آبادي»[1] بهذه الصيغة المختزلة باسم العَلَم، بلا إضافة تفسيرية أو إسناد إلى ما يرمز إلى دوره، أو يمنحه صفة ريادية، أو يشير إلى طبيعة منجزه في ذلك العنوان.

حيث أراد الأنصاري أن يكون العَلَم المحض عنواناً وعتبةً لنص الكتاب، وكأنه رأى في اسم (الفيض آبادي) عَلَماً ومَعْلَماً يشيران إلى مدى

(١) عبدالقدوس الأنصاري، أحمد الفيض آبادي، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط٢، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الجهد العلمي التأسيسي، والدور الريادي الذي قام به وتصدى له.

كما انبرى الدكتور محمد العيد الخطراوي إلى المدرسة ودورها الرائد، في كتابه «مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة والموقع التاريخي الرائد»[(١)]، فجلَّى دورها التاريخي في نشر العلم والاهتمام بالمعرفة، وتطرق إلى سياستها التعليمية وشعبها وأقسامها ونظمها التربوية والإدارية، ومدرسيها وخريجيها، وتقاريرها السنوية ومضابطها من محاضر ورسائل وبرقيات وشهادات، مكنَّه من الاطلاع والإفادة منها مديرها ومؤسسها الثاني حبيب محمود أحمد.

ولا يجد باحث بعد الأستاذين الجليلين الأنصاري والخطراوي، مجالاً للإضافة في ذينك الموضوعين: المدرسة والمؤسس، إلا بتأمل ودرس ما عرضاه، والنحو به إلى مسار نقف من خلاله على سيرة المؤسس، مكوناتها وفضائها القيمي والثقافي،واستظهار تكوينات المدرسة ونظمها ومخرجاتها، ودورها في النهضة العلمية والثقافية بالمدينة المنورة في تلك الحقبة.

الكتاب /السيرة: إن السيرة الغيرية التي أراد الأنصاري تدوينها عن شيخه الفيض آبادي، غير متسلسلة في سياق دقيق، وإن كانت لا تخلو من ضبط للمراحل الزمنية والانتقالات المكانية، إذ عمد إلى انتقاء أجزاء ومضامين ومراحل، تكشف البنى المركزية في تلك السيرة والتمثلات المحورية فيها. فبدأ من محضنها الأول الهند، وجذور أسرة الفيض آبادي فيها ،وهجرتها إلى المدينة، وبدايات نشاطها، واستعرض بإيجاز إسهام أفرادها في الحركة العلمية بالمدينة،

(١) د.محمد العيد الخطراوي، مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة والموقع التاريخي الرائد، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وصولاً إلى أحمد الفيض آبادي، وتأسيسه للمدرسة التي هي التمثل الجوهري لمنجز الفيض آبادي، وشاهد دوره التأسيسي.

وقد جاء كتاب الأنصاري وفقاً لعناوين مقالية، يمثل كلٌّ منها جانباً من جوانب سيرة المؤسس وجهوده في التأسيس، ومقاربات متنوعة بين الذات والموضوع في صيغ متعددة مثل: «عهد جديد، أصل وفصل، بيئة وشخصية، فكرة تتحقق، شجرة العلم، تشكيلات وثمار، من نجاح إلى نجاح..»إلخ. وهي عناوين تنبئ عن طبيعة السياق النصي ودلالاته التي يريد المؤلف استظهارها. وجاءت صياغته أقرب إلى البناء القصصي الحكائي، بوصفه أدعى إلى اجتذاب المتلقي، وأقدر على تحقيق البعد السيري للكتاب.

ويمهد الأنصاري مبرراً هذا الأسلوب في المقدمة بقوله:«.. فإن في هذا الكتاب فصولاً هي من نسج الواقع، وفيه فصول تضافر الخيال والواقع على نسجها، فللواقع منها طرف تسجيل الحقائق الأساسية كما هي، وللخيال منها طرف سرد التفاصيل، وليس فيه فصل ولا فصول من نسج الخيال وحده»[1].

فالواقع الذي أراده المؤلف هو التفاصيل السيرية، واليوميات المتعددة، والمراحل الزمنية، والمحطات المكانية المنتقاة، والنصوص الوثائقية التي انتخبها من أقوال الفيض آبادي وأثبتها في الكتاب، والخيال هو التقنيات الأسلوبية، ووسائل الكتابة وجمالياتها، ومسوح القصة التي كتب من خلالها هذه السيرة.

وهو شديد الاعتداد بسيرة شيخه لسببين ذكرهما في المقدمة، وهما:

١- أن سيرته مثال وضَّاء للحياة العاملة المنتجة، والسير القويم في معارج الحياة الاجتماعية الكاملة.

(١) عبد القدوس الأنصاري، ص٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٢- أنه حصر حياته منذ شبابه إلى شيخوخته، وإلى آخر نفس من حياته في سبيل هدف سام، يستحق لأجله تخليد الذكر، ألا وهو رفع منارة العلم وتثقيف الناشئة؛ بإنشاء معهد علمي عظيم لهم في بلد الرسول صلى الله عليه وسلم[١].

لقد استحق الفيض آبادي خلود الذكر في - نظر الأنصاري - لأنه مثال وضّاء للعمل والإنتاج، والاستقامة في السلوك ورفع منارة العلم، وقد وقف حياته لأجل هذا الهدف السامي، مما يؤهل سيرته وصنيعه للخلود. ولذلك أخذ الأنصاري على نفسه كتابة تلك السيرة، كنموذج لأول سيرة غيرية يكتبها أديب مدني في تلك الحقبة. وكان لقربه من الفيض آبادي والعمل معه والأخذ عنه؛ دور في مقاربة تكوينات تلك السيرة وتفصيلاتها، بذلك القدر من الحميمية والإعجاب.

وقد أهدى الأنصاري هذه السيرة «إلى الذين يسرهم تقدم الثقافة في مهد العروبة والإسلام»[٢] وبوصف الإهداء إحدى العتبات النصية الموازية للنص الأصلي:السيرة/المتن. رام الأنصاري من خلال تدوين سيرة شيخه، التمثيل لنموذج العمل والإنتاج والإنجاز وخدمة المعرفة، ومن ثم يتقاطع الإهداء مع النص السيري في جانبين:

أولهما:إقرار كون المدينة المنورة مهداً للعروبة والإسلام، استناداً إلى قيمتها التاريخية والعلمية، على مرِّ العصور.

وثانيهما: محاولة التمثيل لهذه القيمة بنموذج حي، يسعى إلى تأكيد ذات القيمة والدلالة عليها،وهو الفيض آبادي بوصفه فاعلاً في بعث قيم المكان (المهد)، ما يبرر استحقاقه لتلك المكانة.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما نجد نصاً موازياً آخر، أراد الأنصاري من خلال استصحابه حشد قيمة ثقافية لكتابه ونموذجه، وهو لأحد قادة الحركة الثقافية العربية الطليعيين، وهو الأستاذ أحمد حسن الزيات، الذي قرَّض الكتاب وصدَّره بما يشير إلى معنى البعث الثقافي وإحياء تقاليد المعرفة الأصيلة حيث قال: «الكتاب الذي يمثل مبادئ اليقظة العلمية الحديثة لمهد العروبة والإسلام في العصر الحديث، بأسلوب يجمع بين متعة الفن القصصي وعمق البحث العلمي.. »[1].

ولقد عدَّ الزيات كتاب الأنصاري مثالاً لمبادئ اليقظة العلمية الحديثة، وأشاد بأسلوب صياغته، فهو - في نظره - وبحكم موضوعه، يجمع بين متعة الفن وعمق البحث.

ومن ثمَّ استثمر الأنصاري مفهوم «مهد العروبة والإسلام» في أهدافه كما رأينا، قناعة بها وتأسيساً عليها.

وقد وفَّر الأنصاري لكتابه هذه العتبات، ووظف دلالاتها النصية؛ ليجعل شيخه الفيض آبادي في ذلك المستوى الرفيع، في كتاب يحتوي بعض سيرته، وتتصدره شهادة علم ثقافي ذا قيمة رمزية كالزيات.

وتكمن قيمة الكتاب في نظري - بالإضافة إلى موضوعه (الفيض آبادي) - كونه نموذجاً للسيرة الغيرية، بالكيفية التي وعى فيها الأنصاري معايير هذا الفن وشروطه، ووفقاً للمتن الذي اختاره له.

المؤسس/الفيض آبادي:

تُعدُّ أسرة الفيض آبادي من الأسر الهندية التي هاجرت إلى المدينة المنورة في العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، من قريتهم (اللّه داديور) من

(١) المرجع السابق، ص٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أعمال (فيض آباد)، وقد ولد أحمد الفيض آبادي عام ١٢٩٣هـ، في قرية (باتكرمو) التابعة لفيض آباد، ودرس فيها الابتدائية، وقدم إلى المدينة المنورة عام ١٣١٦هـ برفقة أبيه، الذي كان عالماً في بلاده، واختار المدينة مُهاجراً، وله خمسة أبناء من أبرزهم (أحمد، وحسين، ومحمود)، فمحمود ولي رئاسة الكتاب في العهد الهاشمي، ثم تولى قضاء جدة، ثم صدر أمر ملكي في العهد السعودي بتعيينه عضواً في رئاسة القضاء. أما حسين فقد تولى التدريس في الحرم النبوي بالمدينة المنورة وداوم عليه، وتخرج على يديه مدرسون وقضاة ومصلحون، من بينهم محمد البشير الإبراهيمي أحد قادة حركة الإصلاح والتحرير في الجزائر[١].

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى، سافر حسين إلى مكة والطائف، وطُلب منه أن يفتي بالخروج على الحكومة العثمانية، تحقيقاً لمصالح القوى المتحاربة آنذاك، وتأثيراً على الرأي العام في توظيف الفتوى في تعبئته وتوجيهه، فامتنع. فكان جزاؤه النفي إلى (مالطا)، وبعد نهاية الحرب عاد إلى الهند، واستمر في التعليم والإصلاح الديني والاجتماعي، وتسنَّم منصب رئيس العلماء في الهند[٢].

وفي هذا المحضن الأسري نشأ وشبَّ أحمد الفيض آبادي، حيث أسرة مشغولة بطلب العلم ونشره والإخلاص لمبدأ المعرفة، وتحمل المشاق دون التنازل عن الموقف أو المداهنة والتراخي في سبيله. وهي مغذيات قيمية انبنى عليها عماد شخصيته، وتبلورت من خلالها تطلعاته واستبان هدفه.

وكان قدر المهاجرين إلى المدينة، منذ تأسيس النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم هذا المسلك العظيم (الهجرة إلى المدينة) الإخلاص للقرار

(١) المرجع السابق، ١٧-١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والاختيار، واحترام مقتضياته، وتحمُّل المكابدات الأليمة من أجله. وتكاد المسافة التاريخية بين زماني الهجرتين تتقاسم العناء وتكسب المعنى، يتحقق فيها شكل وجوهر التحول والانتقال من مكان إلى آخر، من الوطن الوراثي، إلى الوطن الاختيار، بكل ما يترتب على ذلك من استحقاقات، وما يمثله من قيمة ومعنى.

وقد شهد القرن الهجري الحادي عشر البدايات الفعلية لهجرة علماء الهند خاصة، وغيرهم من مختلف الأقطار الإسلامية إلى المدينة المنورة، مما أسهم في تلوين تركيبتها الديمغرافية وإثرائها، وتشكيل نسيجها الاجتماعي، والإسهام في نهضتها العلمية[1].

وأسرة الفيض آبادي ليست بدعاً في هذا السياق، بل مثال يتناغم معه. شكلَّ المهاجرون من خلاله واحدة من أهم مكونات المجتمع المدني ورموزه التنويرية ونسيجه الثقافي.

إن تشعب اهتمامات أسرة الفيض آبادي، وتنوع إسهامات أبنائها (أحمد، وحسين، ومحمود) في العلم والتعليم والقضاء؛ يقدم صورة ناصعة من صور إسهام المهاجرين المتأخرين، ومرا كمتهم لمنسوب المكوّن العلمي الثقافي بالمدينة المنورة، وانتظامهم في نسيج المجتمع المدني، واستثمار قابليته للانفتاح والتفاعل، ليكونوا قيمة نوعية محورية في هذا الاتجاه بالمدينة، مما يغذي ويُغني العنصر الثقافي والاجتماعي المكوَّن من ثقافات شتى وبيئات مختلفة، من أبرزها شبه القارة الهندية، ومثالها في موضوعنا هذه الأسرة وسلالتها.

يقول أحمد الفيض آبادي: «**منذ وصلت إلى المدينة المنورة مهاجراً مع**

(١) انظر: د.محمد علي فهيم بيومي، الحركة العلمية في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، دار القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٣٦ وما بعدها.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الوالد عام ١٣١٦هـ، تعلّق بذهني مشروع إنشاء مدرسة لتعليم أبناء هذه البلدة المطهرة، ما يعيد إليهم مجد أسلافهم في ناحيتي العلم والعمل، وظلت هذه الأمنية عالقة بذهني حتى كانت سنة ١٣٣٤هـ..[(١)]»

فقد كانت فكرة البعث، بعث الدور العلمي للمدينة المنورة، تختمر في ذهن المؤسس، وتراود مخيلته طيلة ثمانية عشر عاماً، وتخلُص من كونها فكرة وتصوراً ذهنياً إلى مجالها التنفيذي وتحققها، وظل الفيض آبادي على قناعة راسخة بضرورة الاهتمام بالعلم إلى جانب العمل.

فلم يرد بدءاً أن ينحصر مشروعه في مؤسسة تقدم العلوم النظرية الشرعية فحسب، بل العلم والعمل خطان يتكاملان، ولذلك اختط المؤسس هدفه مبكراً بأن تُعنى مدرسته بالجانب العملي والعلمي الصناعي، ليؤسس لقيمة العمل ما ينهض بها من منهج تعليمي وطاقات وكوادر، وقد عبر عن هذا الهدف بقوله:

«**تأسست هذه المدرسة لغايتين شريفتين هما:**

إحياء العلوم الشرعية بهذا البلد المقدس، وحفظ القرآن الكريم، ولأن الصناعة فرع قائم بذاته ترتكز عليه الحياة اليوم، افتتحت لها الإدارة فرعاً يدخله من يريد من الطلاب أن ينتفع من هذا الفن الحيوي العظيم، وتشوّق الإدارة طلابها إلى الانخراط في هذا المسلك لأن به قوام المعيشة اليوم[(٢)]».

ومن ثم فإن فكرة الإحياء والبعث، كانت ملحّةً على ذهن المؤسس، وكان يتطلع للقيام بما ينهض بها من خلال المدرسة، وكان اهتمامه بحفظ القرآن ودراسة العلوم الشرعية، موازياً لاهتمامه بالتعليم الصناعي

(١) عبدالقدوس الأنصاري، ص٣٢.

(٢) السابق، هامش الصفحة ٣٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الذي يتطلبه واقع حياة الناس وتقتضيه ضروراتها؛ وبذلك تكون مدرسة العلوم الشرعية أولى اللبنات الأساس لهذا الفرع من التعليم، وهذا النوع من الاهتمام بالمدينة المنورة في تلك الحقبة.

ولكي يبدأ الفيض آبادي بالإجراءات الفعلية للتأسيس، ولم تكن قدراته المالية مواتيةً لذلك، عرض تفاصيل مشروعه على أحد أقربائه من الهنود الأثرياء، فتبرع له بمبلغ (١٧٠٠٠) روبية، فدفع ذلك الفيض آبادي إلى أن يُقدم طلباً للحكومة التركية بشأن تأسيس المدرسة، فرفضت الحكومة التركية طلبه، وأمرت بتحويل المبلغ لإنشاء جامعة إسلامية [١].

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى سافر الفيض آبادي إلى مدينة (أدرنه) في تركيا، ضمن رحلة تهجير أهل المدينة (سفر برلك)، وفي عام ١٣٣٧هـ عاد إلى المدينة، ولم تزل فكرة إنشاء المدرسة تراوده برغم ما مُني به في محاولته الأولى من خذلان. وفي عام ١٣٣٩هـ قدم أحد أقربائه من الهند، ووضع نقوده أمانة لديه، فرأى الفيض آبادي أن يطرح عليه فكرة المشروع، فوعده بالمساعدة بعد عودة ذلك القريب إلى الهند، ومن ثم أرسل له مبلغ (٤٠) جنيهاً، ابتدأ بها أحمد الفيض آبادي إقامة مشروعه في محرم ١٣٤٠هـ [٢].

ولم يحل المهيمن السياسي ولا الظرف الدولي إبان الحرب، ولا قلة ذات اليد دون أن يبدأ الفيض آبادي مشروعه، بل تجاوز ذلك كله، مرة بتحمل هيمنة السياسة وحساباتها، ومرة بتحمل عذابات الرحيل القسري عن المدينة، حتى العودة إليها، وثالثة بشراكة المال الهندي ببذرة تنوير يغرسها الفيض آبادي بالمدينة، بالقرب من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: محمد العيد الخطراوي، ص٨.

(٢) عبدالقدوس الأنصاري، ص٣٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وواصل يرعى انبثاقها وينتظر ثمارها بكياسة ودراية يتعامل بها مع الظروف، يقول: «..**ولاحظت أن المبلغ في حد ذاته ضئيل، فإذا افتتحت به المدرسة بكيفية واسعة، فإنه سرعان ما ينفذ، وبذلك يقف المشروع ولما يتجاوز خطواته الأولى، وتلافياً لذلك الانهيار، قررت السير في طريق الاقتصاد، فجعلت المصروف على قدر الوارد..**[(١)]».

لقد كان المؤسس واعياً بما تواجهه مراحل التأسيس - في المشاريع الكبرى - من ظروف وعثرات، ولكي يظل بمنأى عنها تعامل مع تلك الظروف، بما يتلاءم مع مستجدات قد تطرأ وتعرقل سيره في الطريق الذي اختاره.

ولما كان وجدانه متعلقاً بالجوار الكريم، متطلعاً إلى إيفائه حق الجيرة بناءً وحسن صنيع، مضى في التدرج في إقامة ذلك الكيان العلمي، حتى وصفه الأنصاري بـ«أحد بناة العلم في الحجاز الحديث[(٢)]»، ونصَّ الفيض آبادي في صك الوقف الخاص بالمدرسة، على أسس وشروط تحدد أهداف المدرسة ودورها فقال: «..**وإني قد وقفتها مع جميع لوازمها لله تعالى، وحبستها وخلدتها وقفاً صحيحاً شرعياً وحبساً صريحاً مرعياً، وجعلتها مدرسة لقراءة القرآن الكريم وتعليمه، ومدارسة علم التوحيد والتفسير، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وشروح ذلك، والفقه على أصول الأئمة الأربعة، وجميع ما يلزم ويستحسن تعليمه وتعلمه، من العلوم النقلية والعقلية للوصول إلى علوم الدين، والفنون العملية والصناعية، وسمَّيتها (مدرسة العلوم الشرعية ليتامى خير البرية) متضرعاً إلى الله عز وجل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين،**

(١) السابق، ص٣٣.

(٢) السابق، ص٤٤، كما وصفه بـ: رجل النهضة، ورجل الثقافة، انظر: ص٧٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد شرطت في صلب وقفي المذكور شروطاً أصررت عليها، وجعلت المرجع والمصير إليها، منها أن طلبة المدرسة كل طفل أو شخص صالح للتعليم، بدون تخصيص جنس أو قوم أصلاً، ولا تفضيل لأحد على آخر إلا الأيتام، فإنهم مقدمون في القبول في المدرسة المذكورة على غيرهم من الطلبة، لأن أصل تأسيس المدرسة للأيتام القاطنين بالمدينة المنورة من أي جنس كانوا..[1]».

وبذلك راعى المؤسس طبيعة التكوينات المجتمعية السائدة بالمدينة المنورة، والظروف والأحوال الأسرية لعامة الناس بها، كما أكَّد على أمور أخرى تتعلق بالمنهج الدراسي، وبشروط قبول الطلاب والدارسين؛ حيث أكَّد على اختصاص المدرسة بتعليم القرآن، وعلوم الدين والفقه على الأصول الأربعة مراعياً طبيعة الفضاء الثقافي الديني للمدنيين، وعنايتهم بهذه العلوم خاصة، فيما كان يشهده المسجد النبوي الشريف من حلق ومجالس علم تتعاطى هذه العلوم تعلُّماً وتدريساً، وراعى تنوع الاتجاهات الفقهية المذهبية التي كانت سائدة في المجتمع المدني، دون اعتبار لمذهب دون غيره في إطار مشهد الدراسة والتعليم. مما يشير كذلك إلى شخصيته الواعية والمنفتحة.

كما أكَّد على قضية تعلم الفنون العملية الصناعية ودراستها، وفقاً لما تقتضيه طبيعة الواقع ومتطلبات حياة الناس.

وفي شروط القبول التي أصرَّ عليها، ما يعكس حرصه على أن تصل الإفادة من هذه المدرسة حدها الأقصى عبر إقرار مبدأ الصلاحية للتعلُّم من أي جنس أو لون، مع إعطاء الأولوية للأيتام، حيث يؤكد أن المدرسة أُسست أصلاً من أجلهم. وفي ذلك نموذج للرعاية الاجتماعية والتكافل

(١) ورد نص صك الوقف كاملاً في كتاب الخطراوي، ص٢٢ -٢٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الإنساني.

ومما يشير إلى إدراكه لطبيعة التكوين المجتمعي بالمدينة المنورة؛ تجاوز الأصول العرقية والجنسيات في شروط القبول، التي تقوم أساساً على توفر شرط الرغبة في التعلم والصلاحية له فقط، دون أي شرط آخر يقيِّد الراغبين في التعلم والدراسة.

وقد بدأت المدرسة في مبنى متواضع، مستأجر من ناظر وقف أغوات المسجد النبوي الشريف، ظُلِّلت بعض أجزائه بما يشبه العريش أو الصندقة، جوار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المنطقة الأثرية، التي كانت في صدر الإسلام منازل للصحابة والتابعين[١].

ولعل اختياره للمكان، يحقق معنى الجوار لمدرسة الإسلام الأولى، التي أسسها المصطفى عليه الصلاة والسلام في مسجده الشريف، ما يمنح مدرسة العلوم الشرعية شيئاً من الخصوصية والجلال، وهي تواصل مهمة أرادها لها المؤسس وهي:«إخراج جيل من أبناء المدينة المنورة الشريفة، قادر على خوض غمار الحياة، متسلح بما يفيده في آخرته ودنياه[٢]».

وفي العام ١٣٥٢هـ ازداد الإقبال على المدرسة، حتى ضاقت بطلابها، فعمد الفيض آبادي إلى شراء المباني المحيطة بها من الجهتين الشرقية والغربية، لتوسعة المدرسة وإعادة بناء مقرها، وبدأ التعمير بالفعل عام ١٣٥٢هـ وكان على طراز إسلامي بديع، مبني بالحجارة السوداء المنحوتة، وقبل استكمال العمارة بدأ المؤسس يتعرض لنوبات قلبية ألزمته الفراش، فتوفي رحمه الله في شوال عام ١٣٥٨هـ.

---

(١) انظر: سحر عبد الرحمن مفتي، أثر الوقف الإسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٣٢٦.

(٢) الخطراوي، ص١٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويصف عبد القدّوس الأنصاري شيخه الفيض آبادي، بما ينمُّ عن معايشة ومعرفة عميقة، فيراه «**متواضعاً بسيطاً كأبلغ ما يكون التواضع، بسيط في نفسه، بسيط في ملابسه التي لا تتجاوز قلنسوة حجازية بيضاء صغيرة ملتصقة بالرأس، تحتها ثوب من القماش الأبيض، ذو مظهر ومخبر بسيطين، لا يكلف أحداً بخدمته أو قضاء مآربه الشخصية، على كثرة من يرغبون له في ذلك إليه... ينطوي على مرضه ولا يشتكي إلى أي مخلوق، وقد تركّز الحلم في طبيعته.. ومن طبيعته المداعبة والمزاح الخفيف، الذي لا يجرح عاطفة ولا ينكأ قروحاً... شديد المحافظة على فروض الإسلام، حريص على القيام بسننه ونوافله، يقوم بذلك عن طواعية، وعن واعز من الضمير المستقيم.. وكان يتعاطى الشاي ممزوجاً بالحليب في أوقات محددة معينة، ويرى أنه أصلح للجسم من تناول الشاي وحده، وقد يستعمل التمبول الهندي**[1]».

وتدل هذه الأوصاف على شخصية قريبة من الناس، متوافقة نفسياً ومظهرياً مع عامتهم، تعتاد ما يعتادونه وتألف ما يألفونه، مع عصامية وخلق نبيل،وتواضع جمّ، ونكران للذات، فلم ينشغل الفيض آبادي بزوجة أو أولاد، إذ كانت المدرسة بيته وملاذه، وشاهد حلمه الوحيد، ورسالته التي أفنى عمره لأجلها.

ومن ثم كان الأنصاري كلفاً بشيخه، يشير وصفه له بالاعتداد والإكبار، وقد أراد تخليد ذكره، وتدوين أوصافه الخَلْقية والخُلقية، فلامس بحميمية ومباشرة وعفوية ضروباً من يومياته ونشاطه الحركي وسجَّلها، وجلَّى صفاته المعنوية وقوام شخصيته الفاعلة،وما تتوافر عليه من

(١) عبدالقدوس الأنصاري، ص٦٤-٦٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حزم وعزم وتواضع وبساطة وتُقى[١].

ولم تدم حياة الفيض آبادي مع العلوم الشرعية أكثر من ثمانية عشر عاماً، منذ تأسست إلى أن توفي، سبقتها إرهاصات تفكير، وإقدام على تحرير الفكرة وتنفيذها والسير بها نحو الوجود والتحقق، وواجه في سبيل ذلك معضلات وموانع سياسية ومآزق مالية، تجاوزها بإصرار وهمة لا يفتران، وعندما توفي نعاه الأصدقاء والزملاء، تلاميذه ورفاق دربه شعراً ونثراً يعكس مكانته في النفوس، وتقدير الناس لدوره وكفاحه. ويجلّي ملمحاً من ملامح حركة الأدب في المدينة المنورة آنذاك.

فقصائد التأبين التي كتبها الشعراء عبد الحق رفاقت علي، وعمر بري، وعبد القدوس الأنصاري ومحمد هاشم رشيد، في الفيض آبادي[٢]، تفصح عن مدى لوعة هؤلاء الشعراء والصحب والتلاميذ، وشعورهم بفادحة الفقد، وتمثّل نماذج من شعر الرثاء عند الشعراء المدنيين، المتوافر على قدر من الشاعرية الأصيلة، والإحساس بقيمة الفقيد، وقيم تعبيرية ودلالية أخرى.

إلا أن ما يستدعي الملاحظة كذلك، المقالات النثرية التي كُتبت في ذات الغرض، ومنها ما كتبه أحمد رضا حوحو الذي نعدُّ مقاله – بالإضافة إلى قيمته الأدبية – مقياساً نستشعر من خلاله رأي المثقفين في شخصية الفيض آبادي، وتقديرهم لدوره في حياتهم، وفي مجتمع المدينة المنورة في ذلك الوقت، حيث يقول:

«..**ثق أيها الأب الجليل.. بأننا لم نقف في هذا الموقف لإرضاء أحد أو مداراته، وإنما لإرضاء أنفسنا المتألمة لفقدك، لمحاولة إطفاء نيران قلوبنا**

(١) انظر: السابق نفسه.

(٢) الخطراوي، ص٦٨٢ – ٦٩١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المشتعلة من لوعة فراقك... باسم أولئك الأبناء البررة الذين كنت تحرص على راحتهم وتسهر على تقدمهم أكثر من حرصك على راحتك، لأن راحتك لم تر لها يوماً قيمة في سبيل جهادك المتواصل في سبيل الدين والعلم، باسم أولئك أيها الأب العزيز أقف على هذا المنبر المتواضع أبكي فقدانك المؤلم... اليوم وقد فارقتنا فهل يسرك أن نبقى محافظين على مبدئك السامي.. ألا وهو (الحقيقة فوق كل شي)؟! نم هنيئاً، فسنتمسك بهذا المبدأ ما بقينا، ولكن بعدما نقشنا ذكرك في سويداء قلوبنا.. رحمك الله أيها الأب الراحل..[1]».

وتشكِّل هذه الكلمة نموذجاً لأدبيات التأبين، يحررها أحد الضالعين بالكتابة وفنونها من خريجي مدرسة العلوم الشرعية، والمبرزين من أدباء المدينة في حقبة الرابع عشر الهجري، وممن شاركوا الفيض آبادي بدايات تأسيس المدرسة، طالباً فمدرساً فيها. ومن ثم كان تقديره للفضائل التي يتحلَّى بها الفيض آبادي، نابعة من قربه منه ومعايشته لجهاده العلمي، وإحساساً حميماً بأبوته الحقيقية وإيثاره الجم لأبنائه من طلاب المدرسة، وانحيازه للحقيقة، بحمولة تلك العبارة التي وضعها حوحو بين قوسين، والتي يبدو أنها من لوازم حديث الفيض آبادي، وشعار كان يدعو إليه ويتمثله في تعامله ومواقفه.

وحوحو، كاتب متمرس وناثر محترف، يدرك قيمة الكلمة ويستشعر أبعادها. ولذلك فإن حديثه يتجاوز فورة الشعور الأليم بالفقد، والموقف الانفعالي للعواطف، إلى وعي بدلالات الكلام وقصد إلى مراميه، ولذلك كان الفيض آبادي في نظره مجاهداً في سبيل الدين والعلم، وصاحب مبدأ تجاه الحقيقة، ولعل تأمل سيرة الرجل وصنيعه في العلوم الشرعية، يشكل

(١) عبدالقدوس الأنصاري، ص١٣٤-١٣٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تمثلات لتلك القيم والمعاني، وترجمة فعلية لها.

كما أن حوحو كذلك يمثل فرداً من جمع كبير من المبرزين في مجال التعليم والأدب والقضاء، من رموز المجتمع المدني، الذين تأسست لبنات وعيهم المعرفي في رحاب مدرسة العلوم الشرعية، ويشكِّل الفيض آبادي لهم قيمة رمزية ومظلة أبوية، تربوا في ظلالها السنية ونهلوا من معينها الفياض.

كما خفت الصحف السيارة في ذلك الوقت، مثل أم القرى، وصوت الحجاز، ومجلة المنهل تنعي الفيض آبادي، وتذكر مآثره، فنعاه غير شاعر وناثر، مما يعكس المكانة التي تميز بها الرجل في المجتمع العلمي في المدينة، وتقدير دوره البارز في نهضتها العلمية.

العلوم الشرعية.. تطلعات المؤسس، ومخرجات المدرسة:

نحاول في الصفحات الآتية استجلاء الدور الثقافي الرائد لمدرسة العلوم الشرعية، وكيف أدارها الفيض آبادي، وأسس فيها قيماً جديدة لمبادئ التعليم وأهدافه، في المنهاج الدراسي ونوعية المدرسين والدارسين، ومدى إضافة المدرسة لمجتمع المدينة المنورة، وتأكُّد دورها الاعتباري المهم في منظومة المؤسسات الكبرى، ودور المؤسس الثاني فيها، وما يتقاطع مع ذلك من موضوعات.

وكان الأنصاري قد دوَّن في كتابه معطيات ذلك، واستعرض بعضاً من تجلياته، فيما كان الخطراوي أكثر استيعاباً لهذا الدور، حيث قرأ سجلات المدرسة وتقاريرها السنوية، ولوائحها التنظيمية، ونظمها الإدارية، والمكاتبات المتبادلة بين مؤسسها الثاني وملوك الدولة السعودية رحمهم الله، وأسماء خريجيها، وأراء الشخصيات العلمية والأدبية، والسياسية الرسمية، الذين زاروها.

ولعلنا نستخلص من ذلك ظواهر ورؤى منها:

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أولاً: الشكل المعماري والتصميم الهندسي لمبنى المدرسة. فقد كانت حتى المرحلة الثالثة من بناء مقرها. تتخذ من الطابع المعماري السائد في المدينة المنورة شكلاً لها، حيث بنيت بالحجارة السوداء المنحوتة، متناغمة مع الطابع العام للدور والمجاورات المبنية بذات المواد، لتمثل واجهة هندسية ومعلماً بصرياً لافتاً في مكوناته وأبعاده الجمالية، وكان ذلك محققاً لانتمائها البيئي في هذا المجال للمدينة المنورة.

ثانياً: يضم سجِّل مدرسيها حتى العام ١٣٥٨هـ - الذي توفي فيه المؤسس - وما بعده أسماء عديد من الرواد في مناحٍ حيوية شتى، كالتعليم، والقضاء، والصحافة، والكتابة السردية والشعر، والمكتبات، والترجمة، مثل: محمد الطيب الأنصاري، ومحمد الحافظ موسى، وعبد القدوس الأنصاري، وأحمد رضا حوحو، ومحمد سلطان نمنكاني، وعبدالرحمن عثمان، وغيرهم.

ثالثاً: مكونات وسمات الوثائق الرسمية الخاصة بها مثل:

أ- شهادة الإذن: حيث نجد في صيغة الإذن بفتحها قبل العهد السعودي ما نصه:«**بناء على المرافعة الواقعة من طرف السيد أحمد فيض آبادي الهندي المقيم بالمدينة المنورة، في شأن فتح مدرسة لتعليم القرآن الكريم، والعلوم الدينية والشرعية بالمدينة المنورة، صار عرض الكيفية والاستئذان، فصدرت الإدارة السنية الملوكاتية برقياً بتاريخ ٦/شوال ١٣٤١هـ - عدد ٦٠٩، بالإذن بفتح المدرسة المذكورة، تحت مراقبة مديرية المعارف الجليلة، فعليه أنتم مأذونون بفتحها، خدمة للعلم والدين والوطن، ولذا أعطيت هذه المأذونية، ٢٠/شوال ١٣٤١هـ**[1]».

وتعكس لغة هذه الوثيقة وأسلوب صياغتها طبيعة التقاليد الثقافية

(١) الخطراوي، ص٣٤ – ٣٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

السائدة وأدبياتها في ذلك الوقت، ومواصفات الذهنية الإدارية، بما تتضمنه من توصيف دقيق ومباشر للمؤسس صاحب الطلب، واختصاص المدرسة، والهدف الذي يريد المهيمن السياسي أن تعمل لأجله، ووضعها تحت رقابة مديرية المعارف. وعبارات التفخيم التي توصف بها الطبقات السياسية والإدارية في ذلك العهد.

ب- شهادات التخرج:ومنها شهادة حفظ القرآن الكريم، وقد صمِّمت بشكل يحيل إلى الطابع الزخرفي والجمالي الإسلامي، وتكون البسملة والآيات القرآنية من مكوناتها الأساس. وينصُّ فيها على اسم التلميذ، ولقبه، وعمره، وأخلاقه، وتبدأ بعبارة: (بمنِّه تعالى).

وكذلك شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، وتشمل نفس المكونات السابقة، مع اختلاف طفيف في التفاصيل.

وبقدر التزام تصميم هذه الشهادات بالطابع الرسمي، فإن عناصره وتكويناته تدل على ذوق جمالي رفيع في الاختيار والصياغة والإخراج.

رابعاً: المقررات الدراسية.

تتميز هذه المقررات بقيمتها النوعية وعنايتها بالتأسيس المعرفي، والتأصيل الجاد بعيداً عن الحشو والتكرار، مع مراعاة مراحل النمو للطالب ذهنياً ونفسياً ووجدانياً. ونعرض مثالاً لذلك بمقرر الصفوف الثلاث الأولى:

ففي الصف الأول يتعلم الطالب ما يلي:

١- كتابة الحروف الهجائية وقراءتها.

٢- معرفة الحركات والسكنات والتشديد.

٣- قراءة الألفاظ الثلاثية والرباعية.

٤- كتابة الأعداد الحسابية وقراءتها إلى الألوف.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- وفي الصف الثاني يتعلم الطالب ما يلي:

١- قراءة وكتابة الجمل الصغيرة والتراكيب الموجزة.

٢- الجمع والطرح.

٣- مبادئ الخط والإملاء.

- وفي الصف الثالث يتعلم الطالب ما يلي:

١- القراءة العربية في كتب مشكَّلة (أي معربة بالحركات).

٢- الخط والإملاء.

٣- الضرب والقسمة مع حفظ جدول الضرب إلى عشرين[١].

ونلاحظ أن مواد هذه المقررات وموضوعاتها معنية بتأسيس الطالب بالمبادئ الرئيسة لكل علم، من جوانب ثلاث هي: القراءة والكتابة والحساب، مراعية الاحتياج الفعلي للطالب والتدرج في تزويده بالمهارات والمعارف الضرورية، بعيداً عن الإفراط في الكم إلى الاهتمام بالنوعية.

وهو ما يعكس وعي أولئك المعلمين بمسالك التعليم ومراحله، والتربية والتأسيس ومقتضياتهما، كما نجد أن هذه المقررات تتدرج وتتراكم مراعية التخصص بحسب الأقسام الدراسية التي تضمها المدرسة، ومراعية كذلك تقدم وعي الطالب ونمو مداركه، ففي الصف الخامس مثلاً في شعبة القرآن الكريم. يدرس الطالب خمسة عشر مقرراً هي: القرآن الكريم، ومبادئ التجويد (كتاب مغني المستفيد في أحكام التجويد)، وكتاب (نور الإيضاح) في الفقه الحنفي، وكتاب (دليل الطالب) في الفقه الحنبلي، وكتاب (متن أبي شجاع) في الفقه الشافعي، وكتاب (العشماوية) في الفقه المالكي، كل بحسب مذهبه من الدارسين. كما

(١) انظر: السابق، ص٣٦ – ٣٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يتعلم الطالب التوحيد (العقيدة الواسطية) ويقرأ كتاب (العزى) في الصرف، ويقرأ كتاب (القطر) في النحو، ويتمرن على حسن الخط، ويقرأ الدروس الأخلاقية، وتاريخ الإسلام، والجغرافيا، والهندسة، ودروس الأشياء (أي العلوم)، والإنشاء، واللغة العربية، والكسور الاعتيادية المركبة، والتناسب، والحساب التجاري، ومسك الدفاتر [١].

ومن ثم نجد أن جانب الفقه والمعاملات في هذه المقررات، يحتوي على المذاهب الفقهية بدون إقصاء مذهب لصالح مذهب، وبدون إجبار الطالب على مذهب دون آخر، بل تزرع في الطالب مبكراً فضيلة احترام مذهبه واختياره، تناغماً مع الجو الثقافي والاجتماعي السائد في المجتمع المدني وتنوعه، وتمثلاته الأخرى في حلقات التعليم في المسجد النبوي الشريف، التي تتكامل مع دور المدرسة وتفتح لها أفقاً روحانياً وعلمياً رحباً، وتشترك مع المدرسة في صياغة قيم العلم والمثل الإنسانية ومقاصد الدين القويم، بمعنى أن المدار المدرسي وأجواءه غير منفصلة عن المدار الواقعي والحياتي اليومي للطلاب، بل كلها وحدة متجانسة من التنوع والحرية، ما يحقق بناء الذات علمياً وقيمياً على ذلك النحو.

كما نلحظ في دروس اللغة العربية وعلومها؛ الاعتماد على الأصول المعتبرة في هذا الحقل، مما يجعل تلك الأصول المنبع الأول لمعرفة الطالب بعلوم اللغة وأصولها، نحواً وصرفاً؛ ليؤسَس على هذه القاعدة الثرية في موضوعاتها وطرائق عرضها، بعيداً عن التبسيط المخلّ، الذي يعرض النتائج معزولة عن مقدماتها الأصلية وسياقها الطبيعي، كما أنها تربط الطالب بالمصادر الأساس لهذه العلوم. بالإضافة إلى العلوم الأخرى

(١) انظر: السابق، ص٤١ – ٤٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كالرياضيات، والمبادئ العلمية الإدارية فيما سُمِّي بالحساب التجاري ومسك الدفاتر، التي أضحى لها اليوم معاهد متخصصة، وبذلك تعقد المقررات الدراسية شراكة معرفية بين العلوم الدينية والدنيوية التي يتطلبها واقع الحياة. ويتم التدرج في هذا المسلك من التخصصات في السنة اللاحقة، لتشمل مراجع علمية أصيلة أخرى يدرسها الطالب، تربطه بالموروث المعرفي على النحو الذي رأينا مثاله آنفاً، وقد أُعدَّ الطالب مهارياً وعلمياً لفهمها واستيعابها. ويُراعى ذلك في الشعب التخصصية الأخرى.

خامساً: تقارير المدرسة.

في التقرير الأول الذي يتكون من (٣٦) صفحة، ويغطي الفترة من ١٣٤١-١٣٤٤هـ يبدأ بمقطوعة شعرية تربوية وتقريرية مباشرة، تدعو إلى القيم الدينية والأخلاقية والعلمية، وهو تقليد ربما لم يشع في التقارير الرسمية - قد تبرره طبيعة نشاط المنشأة - ثم أسماء الخريجين والجوائز الممنوحة لكل منهم. وهي غالباً كتب مرجعية مهمة في الحديث والفقه وعلوم اللغة العربية، ويُستشف من عناوينها المستوى العلمي الذي وصل إليه الطلاب، إذ روعي فيها ملاءمتها لمستواهم العلمي، كما قد يكافؤون أحياناً بمبالغ مالية يحدد مقدارها في التقرير.

وقد وُضعت هذه الجوائز في حقل عُنون له بكلمة:(إنعام) ودوِّن التقرير باللغة الأوردية[1]، ويشتمل التقرير كذلك على الأنظمة الإدارية والتربوية

(١) يقول مؤرخ الحركة التعليمية بالمدينة المنورة والخبير التربوي الأستاذ ناجي الأنصاري: إن السبب في كتابة التقارير باللغة الأوردية، يرجع إلى أن هذه التقارير كانت ترسل إلى الوجهاء والأثرياء الهنود في بلادهم، وتحصل المدرسة بموجب ذلك على إعانات مالية، وإسهامات بطباعة مقرراتها الدراسية هناك. وهو ما يتطلب تأكدهم من مخرجات المدرسة وانجازاتها مضبوطة ومنصوص عليها بدقة وتفصيل في تلك التقارير. وقد زوَّدني الأستاذ الأنصاري بنماذج من المقررات الدراسة، لمدرسة العلوم الشرعية إبان نشأتها، أفدت منها في إعداد هذه الدراسة.(لقاء مع الأستاذ/ ناجي الأنصاري يوم الخميس ١٤٣١/٥/١٥هـ).

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التي تسير عليها المدرسة، والحسابات المالية، ووصف للمرحلة التي وصلت إليها التحسينات والإضافات في عمارتها، وشهادات تقريظية لبعض الزائرين.

وتجسدُّ هذه التقارير النظام الإداري الصارم في المدرسة والدقة فيه. وفقاً لما اختطه المؤسس وحرص عليه في منهجه الإداري.

فيما أُشير في التقرير الثالث إلى أنه قد «**فاز في السنة السادسة ثلاثة أطفال بتكميل حفظ القرآن الكريم بكمال الضبط والإتقان وهم: محمد الحافظ موسى - من سكان البادية - إبراهيم اليتيم، وحامد خليل، فبلغت عدة مكملي الحفظ في ظرف ست سنوات عشرة كاملة.. كما أنه قد أكمل دراسة العلوم العربية العالية التلميذان النجيبان:محمد عبد الله، والشيخ عبد القدوس في هذه السنة المباركة..**»[(١)].

وبعد إكمال حفظ القرآن يترقَّى الطالب من شعبة القرآن الكريم، إلى شعبة العلوم العربية الابتدائية.

وإذا كان محمد الحافظ موسى المنوَّه عن حفظه القرآن في القسم الابتدائي في المدرسة، قد صار من أشهر قضاة المدينة المنورة وعلماء مسجدها الشريف، فإن التقرير السادس للمدرسة الصادر عام ١٣٤٩هـ - قد حوى كلمته في حفل التخرج السنوي للمدرسة، بدأها بأبيات خطابية تبيِّن فضل العلم والأخلاق، ونبل السعي في سبيل تحصيلهما، غير أن ما يحسنُ التوقف لديه في هذه الكلمة، هو ما تلا الأبيات حيث قال: «..**فالعلم هو الواسطة الوحيدة للكمال والهادي إلى حقيقة الإيمان. إن العلم الحقيقي ما أكسب العقل والإرادة قوة، فقوَّاهما وأنارهما، لأن العقل والإرادة هما اللذان يميزان الإنسان عن غيره، لا مجرد النقل، إذ النقل قد يكون حتى**

(١) الخطراوي، ص٧٧-١٠٥، وقد أورد في هذه الصفحات التقارير كاملة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالجماد... فإننا حيثما نظرنا نرى للنهوض أثراً، للعلم معنىً جديداً، فهذه البعثة الحجازية قد أثمرت ثمرها المرغوب، وأخرجت لنا من خير أبناء الحجاز من نؤمل فيهم الوطنية الصحيحة، والإخلاص الأكيد[(١)]».

والمتأمل للبنية النصية والدلالية للكلمة، والعقيدة الثقافية التي تقوم عليها، يرى فيها حقائق معرفية ورؤية عميقة، قد تكون أكبر من أن يدركها طالب في ذلك المستوى الدراسي، ولكننا نقرأها بظروف عصرها ومناخه الثقافي، وبالنظر إلى نوعية التحصيل العلمي لطلاب العلوم الشرعية، وباعتبار نوعية المدرسين وفلسفة التعليم آنذاك، فلا بأس إذن أن ينهض الطالب محمد الحافظ موسى بهذا المستوى من الوعي بالعلم الحقيقي ومكتسبات العقل منه، وبدور العقل والإرادة وقيمتهما، وبدورهما وأهميتهما إزاء النقل، وبمعنى العلم وإضافته للإنسان وحياته ودوره في النهوض، وبفكرة البعث التي كانت تسيطر على أذهان أبناء ذلك الجيل، بعثٌ يُؤمل معه وطنية صحيحة وإخلاص أكيد.

فهل لنا بعد ذلك أن نعدَّ هذه الكلمة مثالاً على طبيعة الوعي الثقافي الذي ساد في المدينة المنورة، وشكَّل فضاءً تعددت تمثلاته وتطبيقاته خلال تلك الحقبة في مدرسة العلوم الشرعية وبين طلابها؟

يقول الطالب محمد أسعد رضوان في الصف الدراسي نفسه، الذي كان فيه محمد الحافظ موسى، وبالمناسبة ذاتها: «.. **وأي عمل أكبر من نشر الثقافة والعلم، بين أمة كادت أن تصبح في معزل عن الثقافة والعلم، وكاد صرح بنائها العالي القويم يتهدم، وفي الحقيقة إنه عمل حي، وواجب إنساني مقدس يستحق كل إعجاب وتقدير وتشجيع..**[(٢)]».

---

(١) السابق، ص١٧٠ – ١٧١.

(٢) السابق، ص١٧١- ١٧٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن مضامين هاتين الكلمتين، تتجاوز معتاد الخطابات المناسباتية المماثلة؛ لتقرر حقيقة العلم وفلسفته ودوره في النهضة والبعث الثقافي، وإسهامه في فكّ العزلة عن الأمة، وانفتاحها على محيطها العلمي وأفقها الإنساني، وأهمية التفكير العقلاني الحر، وقيمة الإرادة وفاعليتها وأثرها، ونبذ العزلة والتحذير منها، مما يدل على وعي أبناء تلك الحقبة من طلبة المدرسة بواقعهم ومتغيراته، ويعكس طبيعة الثقافة السائدة في مجتمع المدينة العلمي في ذلك الوقت، واتجاهات القيم المعرفية التي تحكم مثل تلك المؤسسات التعليمية، ويتأتى مثالها - كما في الكلمتين - في ذلك المستوى من الوعي والبيان.

ونجد أن حرص المدرسة على إشراك طلابها في الإسهام الفعلي في برامج تلك المناسبات، يتجاوز ما تقتضيه آنية المناسبة والطابع الاحتفالي والتشجيعي، إلى غرس الثقة في نفوس الطلاب، ومنحهم حرية التعبير عن أفكارهم ورؤاهم.

سادساً: التزاماً بصك الوقف الشرعي للمدرسة، فقد خلفَ السيدُ حبيب محمود أحمد، عمَّه السيد أحمد الفيض آبادي في إدارة المدرسة وتولي مسئولياتها، وذلك في العام ١٣٥٨هـ، ولاقى تعيينه في هذا المنصب اعتراضاً من مديرية المعارف، لصغر سنه، وجرت مكاتبات ومخاطبات في هذا الموضوع، آلت إلى تأييد تعيينه مديراً مسؤولاً عن المدرسة بموجب أمر سامٍ صدر بتاريخ ١٣٥٩/٨/١٥هـ[1]، وقد أخذ الخلف من السلف الحماسة والإخلاص والتفاني لكل ما من شأنه الارتقاء بالمدرسة وتطويرها، حتى عُدَّ المؤسس الثاني لها، فاهتم بها في جميع شؤونها، وباشر مهام تطويرها وإدارتها بنفسه، مع جمع من المعاونين، وحرص على أن يكون لها حظوة

(١) انظر: السابق، ص٣٩٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لدى ملوك المملكة العربية السعودية منذ الملك عبد العزيز إلى الملك فهد رحمهم الله. حيث دعا الملك سعود لافتتاح مبناها الجديد بالقرب من المسجد النبوي الشريف عام ١٣٧٨هـ، فأجابه الملك وحضر حفل الافتتاح. ويعدُّ سجل المكاتبات بين ملوك الدولة السعودية والسيد حبيب وجهاً من وجوه العناية التي أولاها قادة البلاد لهذه المدرسة والاهتمام بشأنها.

كما أدت تلك العناية - مع طابعها الرسمي وقيمتها المعنوية - إلى أن تكون المدرسة من أبرز المؤسسات التعليمية والمعالم الرئيسة في منظومة المؤسسات المهمة بالمدينة المنورة، التي تكون زيارتها ضمن البرنامج الرسمي لزيارات كبار المسئولين للمدينة المنورة، إذ فاقت شهرتها حدود المملكة، وأضحت معلماً يحرص ضيوف الدولة والشخصيات العلمية على زيارته. حيث زارها إضافة إلى قادة المملكة، الأديب المصري أحمد أمين، والشيخ مصطفى عبد الرازق، وحسن البنا، وطلعت حرب، وشكري القوتلي، وعبد الوهاب عزام، وعلي أحمد باكثير، وجميل الراوي، وغيرهم، وسجلوا انطباعاتهم عنها في سجل الزيارات الخاص بها، الذي ابتدع فكرته أحمد الفيض آبادي، وكتب له عنواناً بتوقيع نصه: «**ليكون له تذكاراً ولعقبه استبصاراً**»

سابعاً: كان من الأهداف التي أرادها السيد أحمد الفيض آبادي من وراء إنشاء المدرسة، كفالة أيتام المدينة المنورة، وينص الاسم الرسمي بصك الوقف على هذه الغاية، وقد اهتم بهذا الفعل الاجتماعي والأخلاقي، استشعاراً منه لحال هذه الفئة «فشرع في عمارة ملجأ لإيواء اليتامى المنضمين إلى مدرسته ولكنه مات قبل إكمالها، فأنجز خلفه تلك العمارة ووسعها، وأضاف إليها قطعة كبيرة من الأرض، ثم افتتح هذا الملجأ في

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شهر شعبان سنة ١٣٦٤هـ[١]»، فلم تتوقف حركة التوسع في المدرسة وملحقاتها، بل واصل المؤسس الثاني حركة التطوير والبناء وفاءً لتطلعات سلفه الفيض آبادي، كما عُنيَ بافتتاح فرعين للمدرسة، أحدهما في قباء، والآخر في العيون بالقرب من جبل أحد[٢]، ومضى في تحقيق تطلعات سلفه، وأضاف بخبرته ما تقتضيه متغيرات الأحوال، ومستجدات الظروف.

ثامناً: نص الفيض آبادي في صك الوقف على منهج مدرسته ومجال اختصاصها، ومن ذلك أن المدرسة «**معنية بجميع ما يلزم ويستحسن تعليمه، من العلوم النقلية والعقلية والفنون والصناعية**[٣]».

وكان الفيض آبادي يدرك عن قناعة وإيمان أهمية الفرع الصناعي بالمدرسة، وما ينطوي تحت هذا الفرع من مهارات مهنية وحرفية، تساعد على احتواء مواهب الطلاب وقدراتهم، ليسهموا في خدمة مجتمعهم ويسدوا بعض حاجته من الحرف والصناعات، وفقاً لما يتطلبه واقعهم المعيشي. فكانت المدرسة مرتبطة بالناس في كافة شؤونهم، شريكة للمجتمع في جلِّ مناشطه وحراكه «وكان أول ما قام به من الأعمال تمرين الملتحقين من الغلمان على مزاولة الخياطة الآلية، وتلا ذلك تمرينهم على نسج الزرابي البسيطة الزخارف والأوضاع، ثم يتعلمون زخرفة الأخشاب ونجارتها وصناعة الأدوات المنزلية، ذات النقوش المتموجة، وتخريم ألواح الخشب الخفيفة والكتابة عليها بحروف منمقة بارزة، ويلي ذلك رسم المناظر الطبيعية والمآثر، وتقدم الفرع فصارت له شهرة مستفيضة في صناعة الكراسي والمكاتب والمناضد..[٤]».

---

(١) عبدالقدوس الأنصاري، ص٩١.

(٢) انظر: السابق نفسه.

(٣) الخطراوي، ص٢٢ – ٢٣.

(٤) عبدالقدوس الأنصاري، ص٤٨ – ٤٩.

وبذلك يكون الفرع الصناعي بذات أهمية فرع تعليم العلوم الشرعية والعربية النظرية، ويلقى اهتماماً كبيراً من المؤسس على النحو الذي يتحدث عنه الأنصاري آنفاً.

لقد اعتمدت المدرسة في سياستها التعليمية إيلاء هذا الفرع عنايتها لتصقل المهارات الحرفية للطلاب، ليتعلموا الصناعة والفنون المهارية وفق ذلك الوصف، ويتقنوا ما يشبه فن الجرافيك ويبدعوا في تكوين لوحاته، مع ما يتطلبه ذلك من ذوق جمالي، يُتاح لهم تجريب مهاراتهم وقدراتهم من خلال تطبيقه عملياً، تحقيقاً لاحتياجات الناس في مجتمع المدينة من هذه الصناعات. ومن هنا كان دور المدرسة ملبياً لحاجة الناس وفاعلاً في شراكته مع المجتمع وتحقيق متطلباته.

وكما كان دور المدرسة المرحلي في التأسيس للنهضة العلمية دوراً نوعياً، فإن دورها في المجال الصناعي قد قاربه في المخرجات والأهمية، فشهد عهد الفيض آبادي تطوراً ملحوظاً في جانب الكفاءة المهارية لطلاب المدرسة في فرعها الصناعي «فحينما توقف سير الواردات من الخارج من الآلات الفنية الدقيقة ذات الأهمية الضرورية كالأساطين الحديدية التي تضغط الهواء من الخارج (البساتم)... ورافعات المياه (الطلمبات) وغير ذلك، فقد صنَّع الفرع تلك الآلات مستوفية شروط الفن، لكل من إدارة أعمال البرق والبريد العامة، وإدارة عين الوزيرية بجدة، ومكائن الأمراء في مدن الرياض وعنيزة وحائل وغيرها من مدن المملكة، وقد نهض طلاب الفرع المتخرجون منه بمهمة المشاركة في تسيير الآلات اللاسلكية بالحكومة العربية السعودية... ويقوم فريق من متخرجي هذا الفرع بإدارة مطبعة المدرسة، وتسيير مطحنتها اللتين تساعدان على تنمية من شأنها أن تقوم بسدّ بعض العجز في نفقاتها المستمرة في الاتساع. وبذلك بلغ المؤسس أوائل

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أهدافه، وشاهد بعينيه ثمار مشروعه في ناحيتي العلم والعمل..[١]».

إن منجزاً بهذا الحجم وهذه الكيفية، يتجاوز معتاد الإنجاز المتوخى من مدرسة قامت أساساً وبجهد فردي على نشر العلم وكفالة الأيتام والسير بهم في دروب المعرفة، لتصبح مؤسسة علمية وثقافية وصناعية واجتماعية، بذلك القدر من الفاعلية ونوعية المخرجات، التي تصل إلى تصنيع أجهزة تتطلب وجود كيانات صناعية كبرى وتأهيلاً تخصصياً عالياً، ليقوم طلابها بخوض هذا المضمار، ويلبوا حاجة مدينتهم والمدن الأخرى منه، ويديروا مطبعة المدرسة ومطحنتها بتلك الجودة في الأداء، ويعوضوا البلاد ما فقدته بسبب توقف الواردات الخارجية من المعدات الصناعية؛ إسهاماً في التنمية، وتطبيقاً لمحصلة تعاضد قيمتي العلم والعمل التي تقوم عليها فلسفة المدرسة معرفياً، مما أكسبها تلاحماً عضوياً مع مجتمعها في المناحي العلمية والعملية الإنتاجية، لتصبح محوراً فاعلاً في الحراك الاجتماعي والتنموي والاقتصادي في المدينة وعلى مستوى الوطن بأكمله، وإذا ما أردنا مقاربة ذلك من خلال تماسه واتصاله مع الحياة بالمدينة المنورة في تلك الحقبة، ووقائعها الثقافية والاجتماعية؛ فسنجد ذلك الاتصال متحققاً في الجانب الاجتماعي وبعده الإنساني، عبر عناية المدرسة بالطبقة المحرومة (الأيتام)، والوافدين والمهاجرين من مختلف الجنسيات، وفي الجانب العلمي متمثلاً في نوعية المقررات الدراسية والسياسة التعليمية، وفي الجانب الصناعي الذي عرضنا إلى نماذجه ومخرجاته آنفاً.

تاسعاً: بالنظر إلى الكادر التعليمي في المدرسة في فترات متباينة من مراحل نشأتها إلى نهاية العقد السادس من القرن الهجري الرابع عشر تقريباً، نجد فيه ما يشير إلى وجود أدوار أصيلة لطبقات ثقافية واجتماعية

(١) السابق، ص٤٩ – ٥٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتشكيلات عرقية متباينة، يجمعها الإخلاص للهدف الذي رسمه المؤسس، فجلّ تلك الطبقات يعدَّون من رواد الحركة التعليمية والأدبية والثقافية في المملكة، فثمة الشيخ محمد الطيب الأنصاري، وأحمد رضا حوحو، وعبد الرحمن عثمان، والأمين الأزمرلي، وعمر بري، ومحمد سلطان نمنكاني، وعمار مغربي، وعبد القدوس الأنصاري، وأحمد التونسي،وعبد الحميد عنبر، ومحمد مختار الشنقيطي، وعبد العزيز إدريس هاشم، وغيرهم[١]، مما أسهم في جودة مخرجات المدرسة من الطلاب، فأغلب المدرسين كانوا طلاباً في المدرسة استقام عماد بنائهم العلمي وتأسيسهم المعرفي من خلال مناهجها الدراسية، والقيم التي كانت تحكم وتوجه مدرسيها، وقت كان التعليم رسالة، بالبعد الكامل لهذه الرسالة وشروطها، حيث يصف عبد القدوس الأنصاري مدرسي العلوم الشرعية بأنهم «**..يجمعون إلى الحصافة العلمية، حصافة أخرى تستهدف حسن التلقين وإجادة التثقيف في بساطة ويسر وإتقان، وذلك بمخاطبة العقل وحسن توجيهه إلى البحث القويم والتفكير الرشيد**[٢]».

ولعل من يتأمل سير الأدباء المدنيين الرواد، يلحظ أن أغلبهم قد تلقى تعليمه في مدرسة العلوم الشرعية بين يدي تلك العقول النيرة، وعلى ضوء تلك الأصول المعرفية الرصينة؛ مما انعكس على صياغة شخصياتهم الثقافية، ومواهبهم الأدبية، وتجلَّى في إصداراتهم ومؤلفاتهم المتميزة.

خاتمة:

لقد أنشأ الفيض آبادي مدرسة العلوم الشرعية في حمأة متغيرات سياسية صعبة، وتحت وطأة ظروف شاقة، وكان عميق الإيمان بهدفه

(١) انظر: الخطراوي، ص٤٩٠.

(٢) عبدالقدوس الأنصاري، ص٣٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

النبيل من وراء إنشائها، شديد الإخلاص له، فرسم لها إستراتيجية جادة احتوى من خلالها الطاقات العلمية والأدبية المتميزة وأطياف النسيج المجتمعي بالمدينة، وصقلها معرفياً وقيمياً، فآتت أكلها على ذلك المثال الرصين، والمُخرج القيِّم؛ مما يخوِّلنا الاعتداد بدور هذه المدرسة الفاعل في تشكيل طبقة من النخب الثقافية، أسهمت في مرحلة النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري في تكوين الفضاء الثقافي والعلمي بالمدينة المنورة، وتغذية مساراته بتلك النماذج من العلماء والقضاة والأدباء والحرفيين، الذين كان لهم دور بارز في تأسيس اللبنات الأولى للنهضة العلمية في هذه المدينة الطاهرة.

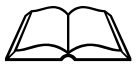

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة